



كنت أظن أن المجتمعات في الجزيرة العربية - وفي نجد تحديداً - تحتوي على أكبر قدر من العصبية المنطقية والاجتماعية والتراتبية العنصرية والطبقية "بدوي وحضري، قبيلي وخضيري... الخ" ..

لكن منذ متابعتي لتفاصيل المشهد السوري بعد الثورة واقتراحي أكثر من تكوينات المجتمع وتنوعاته وانقساماته وجدت شيئاً مذهلاً لم يكن يظهر على السطح، حجم مخيف من التنوع الممزوج بتمييزٍ واعٍ بين مكونات المجتمع وصلت لحدٍ يتجاوز ذلك الموجود في نجد..

التمييزات الطبقية والاجتماعية والمذهبية في المجتمعات المدنية في دمشق وحلب وحمص وحماة والدير وسواهم بحسب الأحياء والوضع الاقتصادي والتاريخ المناطقي والطبقي لسكان الحي "مثلاً أحياء الشهباء والروضة مقابل الفردوس والشعار في حلب" و"من داخل السور أم من خارجه في دمشق" إضافة للانتماءات العرقية والطائفية، فضلاً عن العلاقة غير الودودة مع الريف الذي هو بدوره يحتوي على طبقات وانقسامات جهوية واجتماعية "بين الريف الحضري والريف العشائري مثلاً" ومصطلحات وأوصاف تُستخدم في مدن وأرياف دون أخرى وتوحي بتراتبية تتضمن تحقيراً "مثل الشاوي والضيعي"، وحضور كل ذلك في المخيال الشعبي ووجوب استحضاره ضمن الجهاز التفسيري لما حصل بعد الثورة وعلاقة الأرياف بالمدن وتنوع الفصائل.

حتى اللهجات في المدينة الواحدة تحوي قدراً من الاختلاف بحسب الانتماء الطبقي أو المذهبي، إضافة لوضوح التمايز بين أبناء العشائر وأبناء الحواضر ومختلف الإثنيات "العرب والکرد والترکمان والکلدان والأرمن والسريان والشركس والشيشان... الخ".

عظمة الثورة أنها أنتجت من كل هذا التشظي روحاً وحدوية طغت على كل هذه الانقسامات، وجعلت المدن تنتفض إثر التعدي على مدينة تبعد عنهم مئات الكيلومترات دون وجود أي روابط مدنية أو وشائج اجتماعية، ودفعت الملايين من مختلف المدن والأرياف وفي مئات نقاط التظاهر إلى التأكيد على هتاف وشعار "الشعب السوري واحد"، وجعلت عشرات آلاف المتظاهرين من حمص وبانياس وحماة والدير ودارياً وسواهم - ربما لم يزر معظمهم درعا في حياته - يهتفون في جمعة العزة: "يادرعا إحننا معاكي للموت"، وصنعت لنا تاريخاً خالداً من أسماء الجُمع التي كانت تُعبر عن الإرادة الواحدة والمصير الواحد.

لكن المؤسف أن هذه الروح الثورية الوجدوية تراجعت بعد الإخفاقات التي شهدتها الثورة لصالح العصبية والانقسامات التقليدية العميقة حين بدأ هذا الميكانزم يعمل تحت ضغط الخيبة والتراجع وفشل مشاريع التوحد بين قوى وفصائل ارتبطت بعلاقة زبائنية مع ممولين وداعمين لديهم كثير من الانحيازات والاشتراطات

المصادر: